بحث

﴿ في خطبة العقيلة المصرية « باحثة بالبادية » ﴾

نشرنا في الجزء الخامس هذه الخطبة ووعدنا بأن نبين رأينا فيها في هذا الجزء وكنا نريد ان نطيل القول فيه فكثرت علينا المواد العارضة فساءتنا الاختصار فكان مالا بد منه

ان الخطيبة تسامي بعبارتها وأفكارها كتاب الطبقة الثانية من الرجال بمصر ولكني رأيت عبارة مقالاتها النسائيات في الجريدة أصح من عبارة الخطبة فيظهر أنها لم تعن بتحرير الخطبة عنايتها بتحرير المقالات كما يفعل الذين يكتبون الخطب قبل إلقائها ولا بد لذلك من سبب ينهض عذرا

أودع في الخطبة من الحكم ، ماهو جدير بأن يحفظ و يضرب به المثل ، ولا تخلو من الملح والاناقة التي تستملح في الخطب ، لما فيها من تجديد النشاط وذود الملل ، ولم أر فيها على طولها شيئا تمنيت لو لم يكتب — وان نطق به — الا كلمة واحدة في نساء الافرنج . ورأيت مسائلها المستمدة من الصحف ، اكثر من مسائلها المستمدة من الكتب ، فلعل نساءنا يكثرن من قراءة الصحف فانها دروس تكرر فتثبت مباحثها في الذهن

ينتقد بعض الناس من الخطبة كثرة المباحث النظرية والمسائل البديهية ككون الزوجين الذكر والانثى خلقا للمودة لا للمباغضة وكون العالم لا يعمر بدونهما ، وكونهما سواء في القوة والاستعداد أو متفاوتين ، وغير ذلك من المسائل الفلسفية والاجتماعية كمسألة تعليم احد الصنفين كل مايتعلمه الآخر أو عدم تعليم البنات ، ومسألة خلق النساء للبيوت والعمل فيها والرجال لكسب المعاش ومسألة الحجاب ويرى هؤلاء المنتقدون ان القسم الأول من الخطبة لو كان كالقسم الثاني في الأمور العملية الواقعة من العادات والمعاملات بين الرجال والنساء لكان خيرا وأنفع

ونقول ان ما ذكرته الخطيبة من هذه المباحث نافع ولا بد منه وان كان بعضه خطأ في نظرنا وبعضه يملؤ أفهام كثيرات من حاضرات الخطبة، وانما نفعه أنه يحرك اذهانهن وينبه أفكارهن فتخرج به عقول بعضهن من مضيق ليس فيه الا صور الزينة والأثاث والرياش الى فضاء واسع فيه كل شيء وقد فكرت الواحدة منهن في مسألة من تلك المسائل يكون لها فيها رأي خاص قد يخالف رأي الخطيبة وقد يوافقه وذلك ضرب من ضروب ترقية الفكر التي يطلبها الرجال المحبون لإصلاح الامة

نعم ان القسم الآخر الذي يبحث فيه عن العادات والاخلاق والآداب التي هي مناط السعادة بين الصنفين هو أنفع وأولى بالعناية وقد أجادت الخطيبة وأفادت بما ألقته على المستمعات لها من النصائح والمباحث وذكرتهن بما يغفل عنه اكثرهن من أمر الصلة بينهن وبين الرجال وما يجب ان تكون عليه . ولكنه قلما يفيد الرجال فائدة جديدة لأنهم يعرفونه في الغالب لما سبق لكتابهم من الخوض فيه وهم ينتظرون ان يستفيدوا من كتابة المرأة في النساء اكثر مما يستفيدون من كتابة الرجال عنهن. وعسى أن تكثر الفوائد لكل منهما فيما تجود به الخطيبة من الخطب والمقالات من بعد ، فأن أول الغيث قطر ، وقليلها لا يقال له قليل

لقد قربت الخطيبة مسافة التفاوت بين الرجال والنساء في العقل والفهم كما قربت مسافة التفاوت بين المرأة المصرية والمرأة الغربية . وما قالته أشبه بكلام السياسيين الذين يراعون المصلحة فقط منه بكلام الفلاسفة الذين يتحرون الحقيقة فقط

أرادت أن ترفع من شأن صنفها في أنفسهن وأنفس الرجال وان ترغب رجال وطنها في الوطنيات وتنفرهن عن الاجنبيات فجاءت من الخطابيات في هذا المقام بما يناسبه

ونرجو ان تعيد الكرة فتبحث في مسألة التفاوت بين الرجال والنساء فيما يتعلق بالبيوت والخطبة والزواج والحياة الزوجية بحث المؤرخ الحكيم ، والاجتماعي الخبير ، وان تكون مستقلة في ذلك غير مقلدة لمن كتب من الرجال في هذه المسائل ولا مستمدة منهم شيئاً ، بل من البحث في العادات والاختبار للأحوال ، لعلها تستطيع ان ترشدهن الى ما يرقق حجاب جهلهن ، فيجعله كبراقع وجوههن ، فيصرن ما بين الرجال وبينهن ، مما يحول دون ما يجب من الألفة والود بينهم وبينهن ،

اذا كانت المشاكلة في الاخلاق والعادات ، والمساهمة في الأهواء والرغبات ، معيارًا للمساواة بين النساء والرجال ، فلا مندوحة لنا عن القول معها بأن السواد الاعظم من أهل هذه البلاد لا يزال ذكرانهم واناثهم في مستوى واحد ولذلك يرضى جماهير الرجال بما يفتحره نساؤهم كل يوم من بدع التبرج والتهتك ، فقد مسن الرجال وفتكت النساء ، فصار جمهور الفريقين في المجانة سواء ، ولذلك نرى الزواج لا يزال كثيرا

واذا نظرنا في المسألة من وجه آخر نرى ان الرجال مهما فسدت أخلاقهم أرقى من النساء عقولا وأفكارا وأن المتعلمين والمهذبين منهم أكثر وانه يوجد عدد كثير ينمو عاما بعد عام قد تغير رأيهم ووجدانهم في الزواج فهم يطلبون فيه حياة إنسانية عالية لا تحصل بمجرد دواعي النسل ومقدماته ولا بالنسل نفسه وهو الغاية الطبيعية الشرعية له وإنما هي عبارة عن حاسة زائدة على الحواس الخمس يدرك بها كل من الزوجين من الانس وسكون النفس وشعور الود والرحمة والاخلاص مالم يكن يدرك حقيقته قبل الزواج وانما يشعر كل احد باضطراب في نفسه يصاحبه علم ضروري بانه لا يزول الا بالسكون الذي يكون بالزواج بعد إحكام عقد الزوجية (كما بينا ذلك في مقالات الحياة الزوجية من المجلد الثامن) ولكن المرتقين يعرفون من أركان ذلك وشروطه ومن قيمته مالا يعرفه من دونهم

يعلم هؤلاء المرتقون في مراتب الانسانية ان تلك الحياة التي تلمسها فطرتهم لا تنال الا اذا اقترنوا بمن هن على مقربة منهم في الفهم والخلق ومعرفة قيمة الحياة الزوجية فهل يوجد كثيرات من هذا الطراز في نسائنا ؟

ان الشاب من هؤلاء ليبحث السنين الطوال عن فتاة مهذبة الاخلاق ، ذكية الفؤاد ، وان لم تكن ذات جمال بارع ، ولا رزق واسع ، بل منهم من يشترط عدم ذلك ثم هو لا يظفر بمطلبه ، على ان المرشحات (أي للخطبة والزواج) كثيرات في البيوت وفي الشوارع والأسواق ، وقد تعرف الفتاة هي وأهلها الخاطب فيرضون مقامه وعيشته ودينه وأخلاقه ثم يصدهم عن قبول خطبته عادة من اسخف العادات وإن كانوا يظنون انهم لا يكادون لا يجدون صهرا مثله ، ومنهم من يرد خطبته لأن الفتاة لا يعجبها زيّ ثيابه

ومن هؤلاء من تزوج بعد التحري الطويل في السنين الطوال فلم يكن في

زواجه الا شقيا. أعرف شابا من هؤلاء رغب عن الزواج زمنا طويلا عرض له فيه بعض رؤسائه الاغنياء في الحكومة برغبتهم في مصاهرته فتجاهل ذلك وسعى في الخروج من دائرة رياستهم ، لخجله من العمل فيها مع رد رغبتهم ، ثم تعاونت عليه الفطرة والعفة ، فلم ير بدا من طاعتهما في طلب الزوجة ، فكان من رأيه أن يقترن بفتاة متعلمة تكون دونه جمالا ، ومثله أو دونه مالا ، حتى لا يحجبها الإدلال عليه بجمالها وماله عن معرفة قيمته ، والغبطة بالاقتران به ، وماذا كان ، بعد الظفر بهذا القران

كان ان تلك الدميمة عاملته بالصلف والزهو ، وحاولت استعباده لهواها ، وألحت في ذلك الحاحا ، وجلت في عتو ونفور ، حتى عيل صبره ، ولم ينجع فيها وعظه ولا هجره ، ولم يلق من أهلها الا ناصرا لها عليه ، ومغريا لها بسوء معاملته ، واتهامه بصلاته ودیانته ، فأنشأ يستشيرني في طلاقها وانا اقول له (٣٣ : ٢٧ اتق الله وامسك عليك زوجك — ٤ : ١٩ فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) ثم طلقها ولو شاء ان لا يعطيها شيئا لفعل فانها رضيت بأن تبرئه من حقها ولكنه أعطى الحق وزيادة

لست أحكم على المرأة وأهلها بقول أحد الخصمين فانني كنت واقفا على جميع وقائع القضية اذ كان الرجل يستشيرني في كل شيء فآمره بالحلم والصبر وحسن الخلق مع الثبات على مطالبه الشرعية كستر الرأس والصدر والساعدين والعضدين في حضرة غير المحارم من الاقارب الذين اعتادوا زيارتهم امتثالا للشرع لا اتباعا للظنة . ولو شئت لذكرت غير هذه الواقعة من أمثالها

أليس عجيبا ان يجهل قدر أمثال هؤلاء الرجال مع حرص زوجاتهم على تحبيب أنفسهن اليهم والاستعانة على ذلك بالمزائم والطلسمات ، والبخور والتماجيس والتولات ، وهم يقولون لهن ، غير هذا أولى لكن ، وأدنى الى حظوتكن ، قبلن بعض عنايتكن في تدبير أمر بيوتكن ، لتكون العيشة فيها راضية ، والحياة معكن هنية ، واعلمن ان الخرافات التي يعبر عنها بالروحانيات ، لا سلطان لها على نفوس العقلاء ، فاستمالتنا بها كاستمالتنا بالاسراف في الزينة مما تمجه أذواقنا ، وتشمئز منه نفوسنا . وأنى لهن بفهم هذا الكلام وتصديقه ؟ انهن لا يفهمن منه الا انه احتقار لهن ، وميل عنهن الى غيرهن ،

ليس الغرض من هذا إثبات كون الرجال كلهم مظلومين مع النساء كلا ان منهن

من لا ترى بعلها الا محمولا في السحر من حانات الأزبكية ومواخيرها الى بيتها فيلقى فيه كأنه ميت لا يبي ولا يتحرك ، الا ان يقول هجرا ، أو يأتي نكرا ، وانما الغرض منه بيان ان المهذبين لا يكادون يجدون مهذبات يعرفن قيمتهم وان خير النساء عفة وأدبا ليفضلن في الغالب المجان الفاسقين من الرجال لتصييهم إياهن بالتطرز والتطرس والتورن (١) على ان حظهن منهم بعد الزواج يكون في الاكثر دون حظ فواجر الاجنبيات والوطنيات لانهم في الغالب من الذواقين

ليس بين الرجال والنساء عندنا الآن خلاف كبير في مسألة توسعهن في العلوم ولا في مسألة مزاحمتهن لهم في الاعمال فاذا كرته الخطيبة في ذلك جاء قبل أوانه وانما اكبر الخلاف في كون جمهور عظيم من المتعلمين يطلبون حياة جديدة في البيوت فلا يجدونها لذلك قل التزوج في هذا الصنف وأكثر المتزوجون من أفراده الأغنياء من استخدام الأوربيات ولذلك يتزوج بعض المتفرنجين بهن حتى صار في مصر احتلالان اجنبيان ـ كما قالت الخطيبة ـ أحدهما في المواقع العسكرية وثانيهما وهو أشأمهما في البيوت

قالت ان الرجال يخطئون في إناطة فساد النساء بالتعلم وحقهم ان يناطوه بالتربية وقالت انه لا صلة بين التعليم والتربية الا في تعلم الدين . قد أحسنت في جعلها أمر التربية أهم من أمر التعليم ولكنها افتأتت علينا بما نسبته الينا فاننا نشكو من فساد التربية اكثر مما نشكو من فساد التعليم وقلته . وليس الانفصال بين التربية والتعليم بالمقدار الذي ادعته فان التعليم الصالح يمد التربية الصالحة ويغذيها وهي الاصل في الصلاح فيمكن ان يكون الأمي صالحا بحسن التربية ولكنه لا يبلغ مرتبة من ربي وتعلم . وأما من تعلم ولم يتربى على الاعمال الصالحة فيكون شرا من الجاهل الذي لم يؤخذ بالتربية لانه يكون أعلم بوجوه الشر وأجرأ على العمل بها

اذاً لا بد من تربية البنات وتعليمهن ليحسن ادارة بيوتهن ويكن قرة عين لأزواجهن في انفسهن وأولادهن (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما)

---

(١) تطرز الرجل وتطرس تنوق في اللباس فلم يلبس الا فاخرا . ويقال أيضا تطرس في الطعام اذا تنوق فيه . وتورن اكثر من التدهن والتنعم